حس الجمال كيف نصقله؟

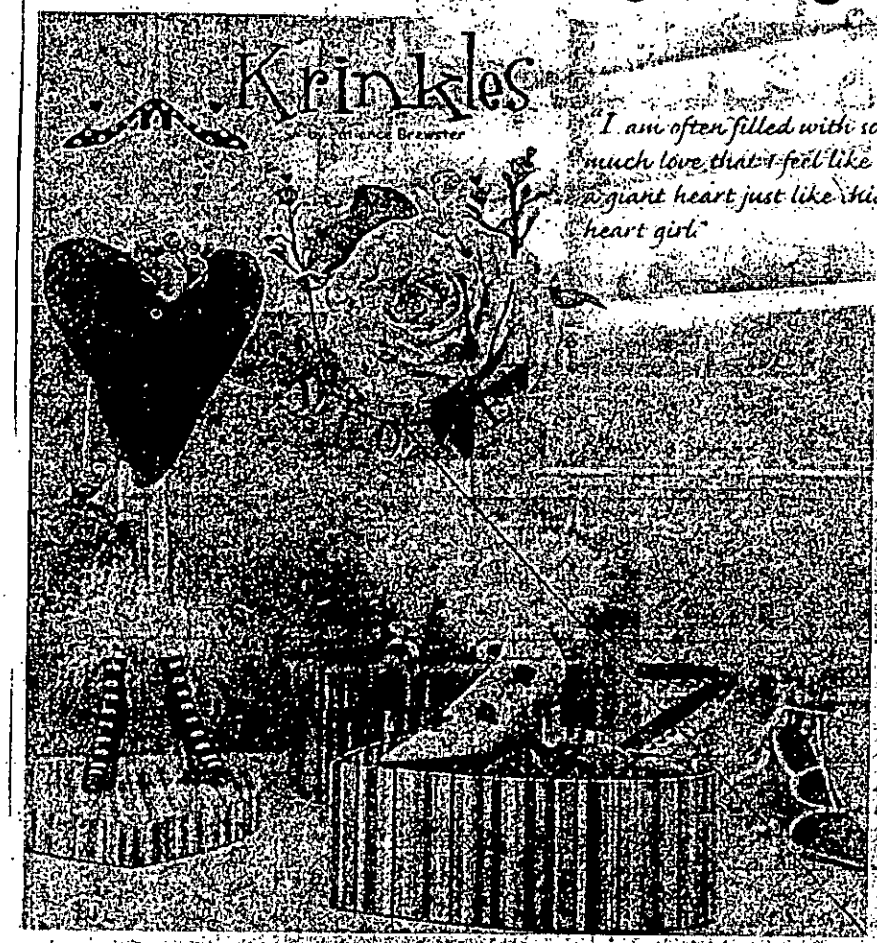

ما هو السر وراء توق الإنسان الدائم الى الجمال؟ كيف يمكن ان نعبر عن الجمال او حتى ان نصقله عندما تفلت منا الحروف وتستحي الكلمات لعجزها عن التعبير لاسيما عندما تأخذنا الغبطة لدى رؤية جمال فائق يشعرنا بذلك الانخطاف المحبب. وكان هذا الجمال المثل امامنا بدا يأخذ بعدا مقدسا فلا يسعنا سوى ان نخر في خشوع ونستسلم للتأمل في روعته الاخاذة.

فما هو الجمال؟ بل ما هي حقيقة الجمال؟ هل هو جمال الجسد والقوام، ام يضيع الشخصية وتالق الحضور؟ هل حلو الكلام ام اناقة التعبير؟ هل الجمال في الفن هو الوان منسجمة ونسب متناسقة وحسب؟ وهل يكمن جمال فن الأداء مثلا في كون الكلمة تصوير يهادي معنى ام هو في بلاغة عشق بين «روح» المغزى و«ذات» المغنى و«جسد» المبنى – في دقة ورقة وقوة – دقة التعبير في رقة المشاعر وقوة الفكر...؟ لطالما كان هدف الفن هو الجمال ولطالما كان كل فن ذو قيمة يرمز الى الحقيقة عبر وسائل وانماط وادوات مختلفة من التعبير... ذلك لان التعبير هو جوهر الابداع الفني... مهما يكن الإجابة.

نلاحظ ان بين الاشياء الجميلة طابع مشترك او صفة خاصة تضفي عليها سمة الجمال كالتناسق والانسجام والمنطق المتين اذا ما تكلمنا عن جمال المواضيع الفكرية مثلا.

نقف عند الكلم Semantics بان مصطلح علم الجمال Aesthetics مشتق من الكلمة الاغريقية Aisthanesthai التي تشير الى فعل الادراك To perceice وايضا من كلمة aistheta التي تعني الاشياء القابلة للادراك Things perceptible بالتالي نستنتج ان تذوق الجمال لا بد وان يكون على صلة قوية بالعقل. لان ادراك الجمال هو نتيجة علاقة بين الشيء الجميل والعقل الذي يدركه. والعقل هو اداة الوعي عبر الفكر كما هو معلوم. فما علاقة الجمال بالوعي وهل يمكن للإنسان ان يطور حس الجمال لديه، وكيف يتم ذلك؟

كلما سألنا عن الجمال، اول ما نسمعه هو: «الجمال نسبي». فما يبدو لي جميلا قد لا يعجب الاخرين، والعكس صحيح. ولكن دعونا اليوم نتفكر عميقا في هذه العبارة ولنسأل انفسنا: هل جمال الاشياء او تالقها يتأثر بثقافة او باختلاف آراء المشاهدين او النقاد؟

والجواب هو: كما ان المعرفة لا تكبر ولا تنمو انما ذواتنا هي التي تكبر بالمعرفة وتنمو بها. كذلك الجمال لا يتغير ولا يتبدل في عالم الحقيقة، اما في عالم الواقع فإن ادراكنا له يصقل وفهمنا له يتوسع كلما ارتفعنا درجة على سلم الوعي...

ان تقوية حس الجمال في النفس هو تفعيل عملية استشفاف الجمال في كل ما حولنا من خلال الإنفتاح الفكري – المشاعري اولا. فاستشفاف الجمال من خلال الانفتاح هو بالدرجة الاولى حالة تفاعل وتواصل مع الآخر، مع الحياة ومع الأشياء من حولنا... انه حالة مد وجزر، حالة عطاء واخذ تمثل مدى حركة الوعي في الكيان. ولان التفاعل هذا يختلف بين شخص واخر نتيجة لتباين نسبة الوعي بين الافراد، لهذا السبب ارتبط مفهوم الجمال بالنسبية.

في هذا الصدد تخبرنا علوم باطن الإنسان – علوم الوعي – الايزوتيريك بان:

«الجمال الذي يخضع لقاعدة النسبية في العالم المرئي هو في الحقيقة خارج إطار المعادلات النسبية. فهذه (المعادلات النسبية) لا تمثل غير حاجة فكرية للتعرف الى الجمال بالمقارنة.

وتضيف هذه العلوم النبيلة: شعور الجمال لا يزكيه غير شعور الحب. فالجمال هو وهج الحب وهالته لان الجمال في الاصل هو وهج النور وهالته في ما وراء الارض».

اذا فالحب – الحب الأصيل – مزكي شعور الجمال لانه يحقق الاستقرار والتوازن للكيان البشري من خلال تفتيحه في كل من الجسد والمشاعر والفكر في ثلاثية «ذات – تفاعل – وعي». فالإدراك الفائق للجمال المادي مثلا يحدث خلال ارقى حالات الاكتمال لوعي الحواس وهذا ما يحققه الحب. فالحب هو دافع اساسي للطاقة الخلاقة في الإنسان، كونه يمثل صميم ارادة التغيير والتغيير ووقود التحدي الذي لولاه لما حققت النفس خطوة واحدة باتجاه التطور. فالحب في العقل هو تماما كتأثير شعاع الشمس الذي يلامس زهرة مفتحا بتلاتها كي تستقبل الحياة في ابهى تعابير عن كيون ازليتها.

من هنا يمكننا القول انه إن التوازن الذي يحققه فعل الحب في الكيان ككل، تحدث التالي تلقائيا:

– الأحاسيس والحواس تنتقط وتصقل.

– المشاعر تترقرق وتتفاعل لتنتقط ارق سمفونية وعي...

– الفكر يصبح رائع التوالد والترقب والتدفق...

هذه هي ثلاثية الإبداع التي بتوسع في شرحها موسوعة علوم الايزوتيريك التي بلغت ازيد من كتابا لتاريخه. بالتالي فإن الإنسان الذي يحقق هذه الثلاثية في نفسه يتفتح لديه حس الجمال تلقيا وبذا، فيضحي كل ما يصدر عنه يحفر نفسه في اذهان الاخرين وافئدتهم سواء كان كتابة او قولا او عملا، لان مصدره ومنبعه الذات الإنسانية، وتغدو حياته مثالا يقتدى به.

تنص علوم الايزوتيريك ايضا بان عصر النور والمعرفة المتقارب يستهم تطورا اكبر واعلى صعيد الجمال والذي سينعكس التطور الحاصل على مستوى الوعي الخاص والعام. اما بالنسبة لجمال المظهر (او الشكل) فمما لا شك فيه ان العصر الجديد لن يقتصر على جمال القوام والمحيا فحسب، بل على جمال الشخصية والمقدرة على التعبير... اي جمال الوعي، بعبارة اخرى وهو جمال النبض الذي يسري فهما داخليا كلما تفتحت المدارك لاستيعاب كل جديد، وكلما بات العطاء يوازي الاخذ، وكلما تكلفت التجارب وتعمقت الخبرات الحياتية وتنوعت.

الجمال حولنا كيفما تلقتنا، لكننا لا ندركه كليا لافتقارنا الى المعرفة والى دقة التمييز.

من هنا بات علينا ان نتحضر للمستقبل القريب وان نهذب حس الجمال في نفوسنا عبر:

١– اكتساب دقة التمييز من خلال تطبيق القاعدة الفكرية الرباعية: تفكير – تحليل – تمييز – استنتاج.

٢– اكتساب النظام من خلال تطبيق التنظيم والانتظام. لان النظام بحد ذاته هو جمال في ترتيبه وتناسقه وانسجام العناصر.

٣– اكتساب الزهافة المشاعرية والشفافية الفكرية.

كما وعلينا ايضا ان نثابر على محاولة استشفاف الجمال في كل لفتة وفي كل مكان وفي كل شيء، سواء في الطبيعة من حولنا او في الحياة، وحتى في مختلف اوجه القباحة. فجمال القباحة كحلو المر، يفوق بكثير حلو الحلو...

ندى شجادة معوّض

جريدة النهار في ١٦-٢-٩٠